المسألة السادسة عشرة

هل جعل الله الكفر والإيمان ؟

ثم قال **عبد الله بن يزيد البغدادى** : ثم سلهم من جعل الكفر كفراً ، والإيمان إيماناً؟.. فإنهم يقول : إن الله لم يجعل التوحيد حسناً ، ولا الشرك قبيحاً .. وكيف يقع الثواب على ما لم يحسن الله ولم يقبح ؟!

رد أحمد بن يحيى :

الجواب ، قال **أحمد بن يحيى** ، صلوات الله عليهما : إنا نقول إن الله ، جل ثناؤه، الذى جعل الكفركفراً بالتسمية والحكم ، لا بالخلق له ، وجعل الإيمان إيماناً بالتسمية ، لا بالخلق له .

وليس لله ، عز وجل ، فى الإيمان فعل ، قل ولا كثر ، إلا الأمر به والافتراض له ، وكذلك ليس لله ، عز وجل ، فى الكفر فعل، قل ولا كثر، بوجه من الوجوه كلها، إلا النهى عنه، والافتراض لتركه ، والخروج منه ،

وأما قولك : إن فى زعمنا أن الله لم يجعل التوحيد حسناً ، ولا الشرك بالله قبيحاً ، وكيف يقع الثواب على ما لم يحسِّنْ الله ، ولم يقبِّح ، ولم يجعله كفراً ولا إيماناً ، واللهُ – زعمت – إنما ذكر فى كتابه أن الثواب والعقاب (على الإيمان) [1] والكفر . .

وهذا كذب منك علينا ، وإسناد إلينا ما لم نقل ، وليس من قولنا ما قلت ، جل الله تعالى عن ذلك .

وقد حرفت وخلطت ، وإنما قولنا : إن الله ، عز وجل ، جعل التوحيد حسناً بالدعاء إليه، والترغيب فيه ، والدلالة عليه، فحسنه فى قلوب الخلائق بالنعت والصفة لثوابه، إذ هو دينه الذى بعث به المرسلين، من الأولين والآخرين، الذى لايقبل غيره، ولايرضى سواه ، ولا يقبل عملاً من سائر الفرائض ، إلا به، ولا جنة لمن خالفه، وقصر منه.

وكذلك قبَّح الله ، عز وجل ، الكفر بالنهى عنه ، والتحذير منه ، والإعذار والإنذار فى تركه والخروج منه ، وليس الجعل لذلك إلاجعل حكم وتسمية ، فأما جعل حتم

---

(١) هذه العبارة ليست فى الاصل .

وجبر وخلق ، خلقهما ، أعنى الإيمان والكفر ، وقسر عليهما العباد ، وخلق فعليْهما جميعاً من الإيمان والكفر ، فليس ذلك قولنا فى صفة خالقنا ، عز عن ذلك وتعالى ، ولا ذلك قول الملائكة المقربين ، ولا الأنبياء المرسلين ، ولا الأئمة الراشدين ، ولا عباد الله المؤمنين ، ولا يوجد ذلك فى كتاب مبين، فيما أنزل الله على العالمين .

وإنما ذلك قول **الملحدين والزنادقة الأرذلين ، والمشركين والظالمين ، وقول عبد الله بن يزيد**، وأصحابه **المجبرة** الأخسرين .

شواهد القرآن على براءة الله من فعل عباده :

والشاهد لنا على أن الله ، عز وجل ، برئ مما قالوا ، قوله ، جل ثناؤه ، : ﴿ **وَلَكِنَّ** ١٠٢و / **اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ / وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴿٧﴾ ﴾[1] ، يعنى ، عز وجل ، أنه حبب الإيمان، إلى من أراد الدخول فيه ، بما وصف من جنات النعيم ، وشوَّقَ إليه ، من الملك العظيم والثواب الكريم ، وكذلك كره الفسوق والعصيان، إلى من أحب ترك ذلك من العالمين ، بما أوعد من فعله ، وعصى[2] فيه ، من العذاب المقيم والنكال الأليم ، والمقام فى خلود الجحيم .

لا أنه جبر أحداً من خلقه، على واحد من الأمرين، من الأولين والآخرين ، ولوجبرهم على الطاعة والمعصية جبراً ، كما قلتم ، لم يجب للمجبورين ثواب ، ولا عليهم عقاب .

وأما قولك : كيف يثيبُ اللهِ على ما لم يجعله هو ، عز وجل ، إيماناً ولا كفراً ؟!..

فنقول لك، أيها المغرور، الغلط فى دينه، والتارك لكتاب ربه : هل رأيت رجلاً قط خاط ثياب نفسه ، ثم لما فرغ منها، أعطى[3] خياطاً آخر أجرة ثيابه، التى خاطها هو لنفسه؟!..

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٧ .

(٢) فى الأصل : عصا .

(٣) فى الأصل : أعطا

أو هل يجوز ذلك فى التعارف أوفى اللغة أو فى العقول ؟ أو هل رأيت رجلا قط بنى داره بيده، حتى إذا فرغ من عمارتها ، أعطى البنائين أجرة ما بنى هو بيده لنفسه؟!..أو هل رأيت جمالاً حمل نفسه ، وأولاده على جماله إلى مكة ، ثم أعطى [1] الجمالين كراء جماله التى يملكها ، ولم يخرجوا معه إلى مكة ، ولم يسافروا، وأعطاهم الكراء على غير عمل ؟!..

فهل هذه الصفة تجوز فى حكمة حكيم ، أو فى صفة متقن عظيم ؟!..

أو هل سمعت ، أيها المخدوع المعجب بجهله ، آية واحدة من كتاب الله ، عز وجل، تشهدُ بما قلت، أنه يثيبُ أحداً على خلقه الذى هو تولى [2] خلقه ، أو يثيب أحداً على أمر تولى هو ، عز وجل ، صنعه دون غيره ؟

أليس آياتُ القرآن تشهدُ ، وتدل على أن الثواب للمطيعين العاملين ، وعلى أن العقاب على العاصين التاركين ، الذين آثروا الهوى ، واختاروا لأنفسهم الدنيا على الآخرة التى تبقى [3] ؟!..

فقتلوا الأنبياء وائمة الهدى ، وأشركوا وكفروا ، وفعلوا كلَّ قبيح باختيارهم وإرادتهم ، لا بإرادته ، عز وجل ، ولا خلقه الذى ألزمته أنه خلق فعلهم ، بل هو البرئ عن ذلك ، تبارك وتعالى .

وقال فى غير موضع من القرآن ، ما لا نحصيه ، أن العقاب وقع عليهم ، بما قدَّمت لهم أنفسهم ، وإنما عملت أيديهم ، وبما كانوا يكذبون ، وبما كانوا يكفرون .

قال الله ، عز وجل ، : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ ١٠٢ ظ / سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ، وَلَكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا / مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [4] ، وهذه الآية من الشواهد أن هذا الشئ خاص دون عام ، يعنى به بما أنطق ، إذ كان كل شئ لاينطق إلاَّ أهل النطق لا غيرهم .

---

(١) كرر هذه الكلمة الناسخ مرتين .

(٢) فى الأصل : تولا .

(٣) فى الأصل : تبقا .

(٤) سورة فصلت : الآيتان ٢١ – ٢٢ .

وإنما احتججنا بهذه الآية ؛ لأنها توجب لنا حجة، فيما نحن فى ذكره ، وحجة لنا عليك ، فى دعواك أن الله خالق كل شئ ، يريدون بذلك أفعال العباد ، وجب فى هذه الآية أن الله خالق كل شئ .

وإنما هو خاص لا عام ، مع شواهد كثيرة، سوف نذكرها فى مواضعها، إن شاء الله.

وكذلك قوله ، عز وجل ، لأهل الجنة ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾[١] ، وقوله : ﴿ بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) ﴾[٢]، وقوله: ﴿ قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾[٣] ، وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[٤]، وقوله : ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾[٥]، وقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾[٦]، فهذا القرآن ، الذى لا حيلة لك فى رده ، يوجب أن الجزاء لا يكون إلا على المجازى ، وإلا لم يجب أن يجزى المجازى على عمل نفسه ، ولا يسمى ذلك جزاء ، ولا يعرف ذلك فى لغةٍ عربية ، ولا غير عربيةٍ ، ولا يقبله عقل لبيب.

إلا أن يقال لرجل : أعطنى جزائى، على زيارتك لقبر رسول الله، صلى الله عليه وعلى آله ، وأعطنى أجرى، على حجتك إلى البيت الحرام !!.

أو يجوز فى اللغة أن فلاناً احتفر بئراً بيده ، فلما فرغ منها ، وخرج ماؤها ، قدم إليه رجل من أهل البصرة ، فقال له : أعطنى أجرى، على بئرك الذى حفرتها لنفسك بيدك!. وهذا نفس المحال من المقال.

---

(١) سورة الواقعة : الآية ٢٤ ، وفى آيات أخرى أشرنا لها من قبل .

(٢) سورة الحاقة : الآية ٢٤ .

(٣) سورة الذاريات : الآيات من ١٧ - ١٩ .

(٤) سورة العنكبوت : الآية ٦٩ .

(٥) سورة النحل : الآية ٩٧ .

(٦) سورة النور : الآيتان ٣٦ - ٣٧

هل يجازى الله العباد على فعله هو ؟!.

فكيف قول **عبد الله بن يزيد البغدادى** فى هذا الموضوع ، وما حجته على الله ، عز وجل ، أن يكون – يجزى على فعله هو ، ويعاقب على فعله ، وهو خلقه – زعمت – صنعه ! . . فيجزى على صنعه الذى صنعه دون غيره، بالجنة وبالنار، التى إليهما مصيرُ الخلائق ، وملك الأبد أو عذاب الأبد .

فهل يخرج هذا القول فى فعل حكيم أو عادل كريم : ﴿ **هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين** ﴾، فلا حجة لك فى هذا ، ولا خلاص إلا التوبة والرجوع ، فتضيف إلى كل عامل عمله لقول الله ، عز وجل : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨** ﴾ [١] .

١٠٣و/ كان هذا القرآن عنى به غير المجبرة ، وكانهم لم يسمعوا قوله ، عز وجل : ﴿ **وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩** ﴾ [٢]، وكانهم لم يقل لهم : ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢** ﴾ [٣].

وقوله : ﴿ **فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١** ﴾ [٤]، فلعمرى، إنهم عند تذكرة الحق، وحجج القرآن ، لكالحمير النافرة من الأسد !

فى نقد أصحاب الحديث :

والدليل على ذلك ، أنك إذا ناظرتهم ببراهين القرآن ، هربوا من النظر ، ورووا فى الحديث أن أسلافهم وكبراءهم قالوا لهم ، لا تسمعوا القرآن من صاحب بدعة [٥]!!

---

(١) سورة الزلزلة : الآيتان ٧ – ٨ .

(٢) سورة الكهف : الآية ٤٩ .

(٣) سورة النساء : الآية ٨٢ .

(٤) سورة المدثر : الآيات ٤٩ – ٥١ .

(٥) إشارة لمقالة أصحاب الحديث فى **أصحاب العدل والتوحيد** ، حيث يقدمون الحديث على ثوابت القرآن ومحكمه ، ويدافعون عن المتشابهات فى إصرار عجيب، وانظر الدارمى ، ١/ ٣٥ «المقدمة» ، باب ٣٥ .

وأهل العدل والتوحيد عندهم أصحاب بدعة !.. فكيف يعرف القرآن ويهتدى إلى عجائبه والنير الشافى من حججه من اعتقد هذا الجهل ، ودان به من رواة الأحاديث ، وجعله ديناً ، عليه يعمل ، وبه يحتج ، وترك قول الله ، عز وجل ، : ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾[1]، ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[2]؟!!..

وقوله : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[3]، وقوله : ﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ ﴾[4]، وقوله : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5]، وقوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾[6].

فنعوذ بالله من الحيرة فى دينه ، والهجران لكتابه ، والعنود من حقه ، إنه قوى عزيز.

وليت شعرى، ما الفرق بين من روى هذا الحديث ، وبين المشركين الذين كذبوا رسول الله ، صلى الله عليه وآله ، وقالوا : ﴿ .. لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾[7]!

***

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٩ .
(٢) سورة الأنعام : الآية ٣٨ .
(٣) سورة العنكبوت : الآية ٥١ .
(٤) سورة القمر : الآية ٥ .
(٥) سورة الإسراء : الآية ٨٢ .
(٦) سورة فصلت : الآية ٤٢ .
(٧) سورة فصلت : الآية ٢٦